على سبيل التقديم:

أولا : أثر القرآن[1] :

القرآن والأفق الجديد:

ترسيمة توضح كسر القرآن لأفق العربي الي كان متشبعا ببلاغة الشعر من منظور حبيب مونسي

صاحب النص	النص	قراءة في النصوص
الوليد بن المغيرة	(إن له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وأن أسفله لمغدق، وأنّ أعلاه لمثمر).	وعندما نقرأ اليوم تعليق "الوليد بن المغيرة" على أثر القرآن الكريم في نفسه. نستعظم مثل هذا الرّد، لأنه يضعنا أمام أول نصٍّ يكشف عن ناتج الوقع في الذات القارئة. يحمل إلينا وصفاً "فطرياً" عن أثر التفاعل بين النص والقارئ، وإن كان لا يشرح كيفيته. ولكنّه تسجيل صادق للوقع، لم يُداخله بعد عارض من عوارض الفكر المميّت قبلاً. خاصة إذا علمنا أن "المغيرة" يمثل نموذج القارئ العارف المختصّ، الذي انتدبته قريش لمهمة "مراقبة" النّص الجديد، وقد خاطب "أبا الجهل" بذلك قبلاً قائلاً: "فو الله ما منكم رجل أعرفَ بالأشعار، منّي ولا أعلمَ برجزه، ولا بقصيده منيّ، ولا بأشعار الجنّ." ومثل هذا القول يحدّد أفق "الوليد ابن المغيرة"، الذي داخلته خلخلة رهيبة زحزحت اعتقاديته، وشككّت ثبوتيته، حتى صار اعتقاده الجديد (أو أفقه الجديد): "والله ما يشبه الذي يقول شيئاً منه، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة" ابن كثير.. السيرة النبوية. ج1 ص 498.

(1)- حبيب مونسي القراءة و الحداثة مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية من منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000،ص254-257

عتبة بن ربيعة	"أنّي سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة... يا معشر قريش أطيعوني، وخلّوا بين الرّجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فو الله ليكونّن لقوله الذي سمعت نبأ، فإنْ نصبه العرب كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه مُلككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسودَ الناس به... قالوا سحرك والله يا "أبا الوليد"	وإنّنا واجدون عند "عتبة بن ربيعة" الأثر عينه، وقد اختلّ ميزان أفقه، وحدث فيه ما خوّل له أن ينصح قريشاً بتخلية السّبيل أمام النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم– ونصّه الجديد لأن الذي يراه فيه إمكانيات جديدة لمستقبل قريش عامة على جميع الأصعدة، إذ هو يقول لهم: "ورائي.. أنّي سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة... يا معشر قريش أطيعوني، وخلّوا بين الرّجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فو الله ليكونّن لقوله الذي سمعت نبأ، فإنْ نصبه العرب كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه مُلككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسودَ الناس به... قالوا سحرك والله يا "أبا الوليد" ابن هشام. السيرة النبوية. ج1 ص 293. إنّ توفّر لدينا التعبير عن ناتج التلقي في أشكال "فطرية" صادقة لدى "ابن المغيرة" أو تلبست ببعض النظرة الاستراتيجية لدى "عتبة بن ربيعة". فإنّ التعبير عن خاصية الحدث، وكيفية تشكلّه تظل غائبة في الموروث العربي، حتى وإن تفطّن لها "أهل الإعجاز" وأدركوا خطورتها، ولكنهم جانبوها حين أعلنوا: "أنّ من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة، ولا تؤديها الصفة" الآمدي. الموازنة ص 385.
الرّماني	"أمّا **نقض العادة**: فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ومنها الشعر، ومنها السّجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث. فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة"	فالعادة في نص الرماني تمثل الأفق السابق، السائد لدى طبقات المتلقين بمعاييرها، وقيمها الجمالية، والفنية، ونقضها يمثل ناتج الوقع الذي أحدث فيها خلخلة، وتحويراً، وتبديلاً، بل تخييباً، وأحّل محلّها شيئاً جديداً، صرف الناس عنها إليه. إذ نقض العادة انزياح عن المألوف إلى جديد يتأسس على قيم جديدة، لها من القوّة والأثر ما يجعلها مهيمنةً، لتغدو معياراً للتفاضل، ومقياساً للجودة. وحديث "الرّماني" في نقض العادة لم ينشأ لديه إلاّ من خلال قراءته للاعترافات المذكورة آنفاً عند "الوليد بن المغيرة"، و "عتبة بن ربيعة" وغيره من فصحاء العرب الذين أعلنوا عن ارتجاج الأفق السائد، وجدارة الأفق الجديد.

الخطّابي	"قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلاّ الشاذّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنّك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً، ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذّة والحلاوة في الحال، ومن الرّوعة، والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر منه النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاحة وقد عراها الوجيب، والقلق، وتغشاها الخوف، والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، **يحول بين النفس، وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها**".	إن في حديث "الخَطابي"- المستوحى من النص القرآني: كشف عن التغيرات الباطنية، والفيزيولوجية التي تنتاب المتلقي أثناء عملية التلقي، وبعدها.

تزخر المدونة العربية بنصوص تبين أثر الإسلام وتوضح ناتج واقعه عند القارئ العادي، والمختصّ واصفة جملة الأعراض المرتسمة في النفس والمظهر، ملتمسة كيفيات حدوثها من ظاهرة كسر بلاغة القرآن لأفق العربي ..إلاّ أن الدّهشة تنتابنا ونحن نستبدل بعض المصطلحات -مما ألفناه اليوم- حتى تقفز أمامه النصوص وقد تبدّت حداثتها، وسبقها، مما يجعلنا نجزم بأنّ أهل العربية الأوائل أدركوا مفاهيم "الأفق السابق" و "ناتج الوقع" و "تشكّل الأفق الجديد" و "تجاوز المعايير" وكلّها مفاهيم تقوم عليها جمالية التلقي اليوم.

ثانيا : الشعر والشعراء في القرآن : وردت في ست مواضع:

يقول الأستاذ **سيد قطب** في تعليل ذمِّ الإسلام للشعراء في الآيات السابقة : " لأنهم يعيشون في عوالمَ من صنع خيالاتهم ومشاعرهم ، يؤْثرونها على واقع الحياة الذي لا يعجبهم ! ومن ثمَّ يقولون أشياءَ كثيرةً ، و لا يفعلونها ؛ لأنهم عاشوا في تلك العوالم الموهومة ، وليس لها واقعٌ في دنيا الناس المنظورة ..... ، و أما حين يكون للروح منهجٌ ثابتٌ يهدف إلى غاية إسلامية ، ثمّ تعبّر عن ذلك شعرًا وفنًّا ، فأما عند ذلك فإن الإسلام لا يكره الشعر ، ولا يحارب الفن" في ظلال القرآن ج 5 ص 2622 .

وقد ذكر **السيوطي** سبباً لعدم قول النبي ε الشعر قال " إن علماء العروض والإيقاع مُجْمعون على أنه لا فرق بين صناعةِ العروض وصناعة الإيقاع .....فلما كان للشعر ميزانٌ يناسب الإيقاع ، والإيقاع ضربٌ من الملاهي ، لم يصلحْ ذلك للرسول ") **المزهر للسيوطي 291/2، 470/2 طبعة دار إحياء الكتب**

النبي صلى الله عليه وسلم لم يُرِدْ أن يُغلق الباب أمام رواية الشعر وقوله ؛ لأنَّ روايته وقوله سيعود على الإسلام بفائدة عظيمة ، وهى استبيان معجزة القرآن وبلوغ حجة الله ، يقول رحمة الله في معرض التقريع لمن ذمُّوا النحو والشعر لضعف هممهم : " وذاك أنّا إذا كنا نعلم أنَ الجهةَ التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت ، ودانت وبهرت هي أن كانت على حدٍّ من الفصاحة تقصُر عنه قوّة البشر ، ومنتهيًا إلي غايةٍ لا يُطمَح إليها بالفكر ، وكان مُحالاً أنْ يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشِّعر الذي هو ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، والذي لا يشكّ أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان ، وتنازعوا فيهما قصب الرِّهان ، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشِّعر على بعض ، كان الصادُّ عن ذلك صادًّا عن أن تُعرف حجةُ الله ، وكان مثلُه مثلَ من يتصدّى للناس ، فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالي ، ويقوموا به ويُقرِئُوه " .

دلائل الإعجاز ، شرح وتعليق الأستاذ / محمود محمد شاكر صـ 9 طبعة دار المدني – القاهرة 1412هـ 1991م

ثالثا: أثر الإسْلام في الشّعر(التحوّل/ المنعرج)

وصف محمد طه الحاجري أثر الإسْلام في الشّعر بأنه " صراعٌ بين القيم الإنسانية الحقّة الخالصة التي جاء بها الإسلام ،وبين القيم التى كوّنتها الجهالة " لقد جاء الإسلام، وغيّر من قيم العرب وعاداتهم وديانتهم الوثنيّة ، ولأنَّ الشعر مرآة عصره ، كان طبعيا أن يؤثّر هذا الحدث العظيم في الشّعر العربي ، كما أثّر في نفوس قائليه "ولم يكن هذا التحوّل والتغيّر الذي طرأ على القصيدة العربية وليد يومٍ وليلة ، وإنما استغرق زمنًا حتى بدَت معالمه واضحةً؛ لأنَّ القرن الأوّل الهجرى كان بمثابة المحصِّلة المشتركة التي استطاعت فيها معالم الحياة العربية أن تتكيّف ويتّضح معدِنها ، حتى أصبح بإمكاننا أن نحدّد بوادر التجديد في البناء الفني للقصيدة .

مقدمة القصيدة

تفسير التحول : بسبب ظروف العصر التي اقتضت الارتجال والرّد السّريع	**النّموذج الجاهلي** : البكاء الأطلال والتغزّل في المحبوبة ووصف الناقة	**النّموذج الإسْلامي** : التخلّص من هذه التقاليد الموروثة (على أنّ المقدّمات الجاهلية وُجِدَت على استحياءٍ عند بعض الشعراء)
الشاهد الشعري:	يعيب كعب بن مالك نراه على من يفتتح قصائده ببكاء الدمن في مطلع قصيدة يرثي بها عثمان رضي الله عنه حيث يقول: **يَا لَلرِّجَالِ لأَمْرٍ هَاجَ لِيْ حَزَنَا لَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى الدَّمن**	
الانتقال من غرض إلى غرض		
تفسير التحول : عدم اهتمام الشاعر بهذه المقدّمة ، وأنّه ما قالها إلا تقليدًا ، يتوصّل منه إلى غرضه ، وقضيّته الأهم ، وهو غرضه الذى قال فيه القصيدة	**النّموذج الجاهلي** : كان الشاعر الجاهلى يثبُ بين موضوعاته داخل القصيدة الواحدة عبر **مرتكزات فنّية** جاهزة تعكس إحساسه بالوحدة	**النّموذج الإسْلامي** : **التخلّص من غرضٍ إلى غرض(التحول الفجائي)**
الشاهد الشعري:	يقدّم حسّان بن ثابت بمقدمة طللية عددها أربعة أبيات يقول بعدها يستهلّ قصيدته : **فَدَع عَنْكَ التَّذَكُّرَ كلَّ يومٍ وَرُدّ حَرارةَ الصّدرِ الكَئيبِ** **وَخَبِّرْ بِالَّذِى لا عَيبَ فِيهِ بصدقٍ غَيْرَ إخبارِ الكَذوبِ** **بِمَا صَنعَ المَليكُ غَداةَ بَدرٍ لنَا فى المُشركين مِن النّصيبِ**	
حجم القصيدة		
	النّموذج الجاهلي : شعر قصائد	**النّموذج الإسْلامي : شعر مقطوعات**
الشاهد الشعري:	قصائد حسان بن ثابت القصيرة في الجاهلية تسْعٌ ، بينما نجد له خمسًا وثمانين قصيدة إسلامية قصيرة عددُ أبياتها عشرون بيتًا فما دون	
معاني القصيدة		

لقد انطبع الشعر الإسلامي بنور الإسلام ، كما انطبعت وتأثرت به قلوبهم ، فجاءت أشعارهم متأثرة بقيم الإسلام ومبادئه ، ومن يتصفح دواوين شعراء الرسول صلى الله عليه و سلم وشعراء صدر الإسلام عامَّة يرى أسلوبًا جديدًا في الفخر والهجاء والمدح ، فبعد أن كان الفخر بالآباء والأجداد والأيام أصبح الفخر باتباع دين الله ورسوله الأمين صلى الله عليه وسلم هو أساس الفخر ، وبعد أن كان المدح بالكرم والشجاعة والصفات الأخرى من قوة وبطش ، انضم إليها المدح بالإيمان والأخلاق الحسنة المستمدة من الإسلام .

" والنظرة الناقدة لا يخطئُها أنْ تلمح أثرًا إسلاميًّا في المعاني الشعرية في شعر من لم يسلم من أهل هذا الصدر " غير أن طبيعة الهجاء في تلك الفترة اقتضت أن تظل فيه الروح الجاهلية من التعيير باللؤم والأيام والتنابز بالألقاب ، الأمر الذي دفع الدكتور محمد محمد حسن إلى القول بأنَّ " هجاء الشعراء ظل متمسكاً بأسلوبه القديم فى نهش الأعراض وقذف الناس بأحسابهم وأنسابهم " لقد كان هناك داعٍ للرد على المشركين بمثل هجائهم .

وأحسب السبب فى ذلك أنهم – أىْ المشركون – لا يعنيهم ولا يؤثر فيهم مثقال ذرةٍ أن يُعيَّرُوا بالكفر والشرك ، لأنهم لا يؤمنون بهذا الدين ، وإنما الذى كان يوجعهم ويؤلمهم وكان " أثرُه فى نفوسهم لا يقلّ عن أثر السيوف فى أجسادهم " هو الهجاء بالأنساب والأعراض لحرص العربي على أن يكون حسيبًا مصون العرض .وقد أشار إلى هذا السبب صاحب الأغانى ، حيث يقول " فكان حسّان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة ، يعيّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قول حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحه ، فلما أسلموا وفقُهوا كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة " [1] ولعل الشعر الذى يصفه الدكتور محمد محمد حسن بأنَّه فيه نهشٌ للأعراض وقذفٌ للناس بأحسابهم لعله مما " أضيف إلى حسان مما لم ينظمه "

نموذج تطبيقي: قراءة في المسالك الجمالية للتناص القرآني بحث في الملامح التناصية للشعر العباسي التناص القرآني (الاقتباس) في شعر ابن الرومي:

«بقدر ما ينتقل نص ما من الوظيفة التعليمية إلى الوظيفة الجمالية، فإنه يتوخى تسليم المبادرة التأويلية للقارئ.

إن حاجة النص إلى من يساعده على العمل حاجة ضرورية.»

أومبرتو إيكو

Lector in Fabula, p. 64

نروم في هذا المبحث بواسطة مقولات التناص(*) الوقوف على أثر القرآن الكريم على الشعر العباسي بوصفه منبعاً ثرياً لقرائح الشعراء في مختلف العصور، حيث تركز الدراسة عل بيان الأثر الواضح للتناص القرآني في تحريك نوازع الجمال الفني والدلالي للشعر العباسي وخاصة في ميمية ابن الرومي في رثاء البصرة،(2)ولا شك أن تجديد أفق التلقيّ الأدبيّ في العصر الحديث، والتحوّل في النّظر إلى الأدب بمعايير مختلفة، أسهم في الكشف عن أبعاد جديدة في الشعر العباسي وإبراز مكونات وسمات ظلت محجوبة عن القراءات الكلاسيكية.

يصدر هذا المبحث من مبدأ نظري يرى أنّ فهمنا ، واستيعابنا للنصوص التي نواجهها يتوقف في كثير من الأسيقة على ضرورة الجمع منهجيا بين الداخل والخارج، بل على ضرورة الانتقال من التفسير العلمي إلى الفهم التأويلي، و من ثم فلابد من التأرجح بين الذاتية والموضوعية، ولابد من إدخال المرجع إلى نسق العلامة، وتجاوز الدال والمدلول الشكليين من أجل تحقيق عمل متكامل ومنسجم3.

يحيلنا طرح Guy Bouchard السابق آليا إلى أنّه مما يعزز فهمنا ، لخطاب ما هو قدرتنا على التعرف على الخطابات التي أزاحها ، أو التي حل محلها . ليس فقط لأن جدلية الخطاب "الحال" ، و الخطاب "المزاح" جزء لا يتجزأ من تكوين الخطاب نفسه ، ولكن أيضا لأن فاعلية الجدلية تعود إلى ما قبل تخلق أجنة الخطاب /النص الأولى، وتترك ترسباتها في شتى طبقات النص سواء ، أوعى النص ذلك ، أم لم يعه (4) .

يرى الباحث عبد الله الغذامي أنّ التناص مصطلح سيميولوجي(وتشريحي)(5)، أو تفكيكي ؛ و يفضل تسميته (بالنصوص المتداخلة) ترجمة للمصطلح الغربي (Intertextuality) ، والأهم من ذلك أنه يسوق تعريف

)-التناص مصطلح من المصطلحات المستحدثة في الأدب ، والنقد ، ويعود المصطلح لغوياً إلى مادة (نصص) ، *(حيث تنتمي جميع اشتقاقاتها إلى حقل دلالي واحد ففي القاموس المحيط للفيروزآبادي:"(تناص) القوم ،" عند اجتماعهم" ، مادة (نصص). ، ويلاحظ احتواء مادة (تناص) على (المفاعلة) بين طرف، وأطراف الفيروزآبادي : القاموس المحيط أُخَر تقابله ، يتقاطع معها ، ويتمايز ، أو تتمايز هي في بعض الأحيان . الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد ابن يعقوب : القاموس المحيط ، ط6 ، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ، 1998

(2) ينظر الفصل الثالث من كتابنا الموسوم بـ جمالية الأسلوب في الخطاب الشعري، بحث في تحيين البنى اللغوية، مقاربة من منظور أسلوبية التلقي مركز الكتاب الأكاديمي،ط2019،01 حيث قاربنا النص نفسه لكن من منظور إيقاعي.

3 -Guy Bouchard: « Sémiologie, sémantique et herméneutique selon Paul Ricoeur »,Laval théologique et philosophique, vol. 36, n° 3, 1980, p. 255-284.

(4)ينظر: صبري، حافظ : أفق الخطاب النقدي ، دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة،1996، ص49.

(5)ينظر: مسالتي محمد عبد البشير:الحس المأسوي في ميمية ابن الرومي،دراسة أسلوبية،رسالة ماجيستيرمخطوطة2010جامعةالحاج لخضرباتنة.ص153

"**شولز**" له ، الذي يؤكد به رؤيتين : إحداهما منهجية تتعلق بأن التناص مصطلح سيميولوجي (كما أنه في رؤية الغذامي علاوة على ذلك تشريحي) ، والأخرى أنّ التناص يتم بوعي، وبغير وعي ، وفي هذا يقول **شولز** : " النصوص المتداخلة اصطلاح أخذ به السيميولوجيون مثل بارت ، وجينيت وكريستيفا وريفاتير ، وهو اصطلاح يحمل معان وثيقة الخصوصية، تختلف بين ناقد وآخر ، والمبدأ العام فيه هو أن النصوص تشير إلى نصوص أخرى ، مثلما أن الإشارات (Signsٍ) تشير إلى إشارات أخرى وليس إلى الأشياء المعنية مباشرة ، والفنان يكتب و يرسم ، لا من الطبيعة ، وإنما من وسائل أسلافه في تحويل الطبيعة إلى نص ؛ لذا فإنّ النص المتداخل هو : نص يتسرب إلى داخل نص آخر ، ليجسد المدلولات ، سواء وعى الكاتب بذلك أم لم يعِ." [6]. والنص حسب **محمد مفتاح** : " فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة"[7] ، وعلى العموم فالتناصّ يتعايش مع الشعر ، ويمنحه ثوباً جديداً ، وينمّي فاعليته التواصلية ، وهذا ما أشار إليه الباحث عبد الله الغذامي بقوله: "وعلى ذلك فإن النصّ يقوم كرابطة ثقافية ، ينبثق من كلّ النصوص ، ويتضمّن ، مالا يحصى من النصوص ، والعلاقة بينه ، وبين القارئ هي علاقة وجود ؛ لأنَّ تفسير القارئ للنصّ هو ما يمنح النصّ خاصيته الفنّيّة" [8] .

ومع أن أصحاب نظرية التناص صاغوا نظريتهم في سياق ثقافتهم الغربية، إلاّ أن هذا ينبغي ألا بصدنا عن إثارة إشكال تأويل نصوص الشعر القديم في ضوء مفهومات هذه النظرية وغيرها من النظريات التي صاغت مفهوم التأويل على نحو لا يخلو من فائدة لا تقتصر على النصوص الأدبية الحديثة، بل يمكن إجراؤها أيضا على النصوص الأدبية القديمة.

على سبيل التقديم: آليات اشتغال الدينى فى الخطاب الشعرى:

لم يعد يُنظر إلى الخطاب الشعري في سياق هذا الأفق في ضوء مفهومات الصنعة والتحسين والتأثير ، بل برزت مفهومات أخرى من قبيل المحاكاة والتصوير والتعبير والأدبية والالتزام والواقعية و التناص، وغيرها من المفهومات التي نشأت في سياق نظرة جديدة للعمل الأدبي تنظر إليه في علاقاته المتشابكة مع منشئه أو مع الواقع أو مع غيره من الأعمال الأدبية أو مع جنسه الأدبي الذي ينتمي إليه أو مع المتلقي باعتباره كفاية تأويلية أو مع ذاته باعتباره نسقا من الدلائل التي تحيل إلى نفسها كما يقول البنيويون.

---

(6)الغذامي ، عبد الله : الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية ، قراءة نقدية لنموذج معاصر، ط4 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 324،325

(7)مفتاح ، محمد : تحليل الخطاب الشعري ، إستراتيجية التناص ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ،1992.، ص 121.

(8)الغذامي ، عبد الله : الخطيئة والتكفير ، من البنيوية إلى التشريحية ،قراءة نقدية لنموذج معاصر، ص 57.

اتفق على تسمية ما وظف من القرآن والسنة في صنوف الأدب كافة (اقتباس)، وذلك حين يُقْدِمُ شاعر أو ناثر على توظيف نصٍّ قرآني أو بعض ألفاظ وردت في القرآن الكريم ، أو في حديث نبوي شريف ، أو معنى ورد في أحدهما ، يوظفه الشاعر لما فيه من قوة بلاغة تعينه على تجسيد فكرته، تجعله أكثر مصداقية ، وأكثر ضماناً في النفاذ إلى حيث يريد. يقول ابن حجَّة الحموي " الاقتباس هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية ، أو آية من آيات كتاب الله خاصة"[1]

وهذا التَّوظيف (الاقتباس) ليس حديث عهد فقد كان السابقون الأوائل ومن تلاهم إلى يومنا هذا "يستحسنون أن يكون في الخُطَبِ يوم الحَفْلِ ، وفي الكلام يوم الجَمْعِ آيٌ من القرآن ؛ فإنَّ ذلك مما يورث الكلام البهاء ، والوقار ، والرقة ، وسَلَسَ الموقع ".[2] وقد شهد عصر صدر الإسلام استخدامًا لافتًا لذلك . يقول الصحابي الجليل (عبد الله بن رواحة):(2)

شهدتُ بأنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ وأنَّ النار مثوى الكافرينا(3)

الآية الكريمة . ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ (4)

وفي العصر الأموي نجد (الفرزدق)* يقول:

كأن على دير الجماجم منهم حصائد أو أعجاز نخل تقعرا (5)

---

(1) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب وغاية الأرَب . ش ، عصام شعيتو ، دار مكتبة الهلال – بيروت- ج2 ، ط2 / 1991م. ص 455

(2) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان والتبيين ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي – القاهرة – ومكتبة الهلال – بيروت . الكتاب الثاني ، ج1، ط3/ 1388هـ 1968م، ص ، 118

(3) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي ، من الشعراء الراجزين الأمراء .. وشهد بدرً وأحدًا والخندق والحديبية ، وكان أحد الأمراء في وقع مؤتة ، وقد استشهد فيها سنة 8 هـ. ينظر : د. السَّيد الجميلي : رجال ونساء حول الرَّسول (صحابة النبي صلى الله عليه وسلم (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) ، دار القلم والتراث – القاهرة – د.ط / د.ت ، ص 291.

(4) ديوان عبد الله بن رواحة ، تحقيق: د. حسن محمد باجودة ، مطبعة السُّنة المحمدية – القاهرة – ط1/ 1972 ، ص 106.

(5) سورة : البقرة ، الآية : 119

* هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية ... كان جده صعصعة عظيم القدر في الجاهلية وكان افتدى ثلاثمائة موءودة إلى أن جاء الله عز وجل بالإسلام ، وكان أبوه غالب من سراة قومه ورئيسهم ، وكان الفرزدق كثير التعظيم لقبر أبيه فما جاءه أحد واستجار به إلا نهض معه وساعده على بلوغ غرضه ... مات في مرضه سنة عشر ومائة. ينظر: ياقوت الحموي الرُّومي: معجم الأدباء ، ج6 ، تحقيق: د.إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان ، ط1/1993م ، ص 2788/2785.

(6) ديوان الفرزدق ، م1 ، تحقيق: كرم البستاني ، دار صادر – بيروت ، د.ط/د.ت ، ص 242.

الآية الكريمة ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾(6)

ومن العصر العباسي نورد قول (أبي تمام)(7):

ثانيهِ في كَبِدِ السَمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ لاثنَينِ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ(1)

الآية الكريمة : ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾(2)

و قد مثل الباحث بدوي طبانة للاقتباس بقول الشاعر :

كَانَ الذي خِفْتُ أن يَكُونَا إنّآ إلى الله رَاجِعُونَا

و مراده آية التعزية في المصيبة و هو في قوله تعالى : « الذِينَ إذَا أصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إنّا لله و إنّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ .9»

و قال "بدوي طبانة " أن بعضهم قال إن الشاعر « إذا أخذ القرآن أو الحديث لا يسمى فعله اقتباسا بل يسمى عقدا و تضمينا ، أما الجدير بأن يسمى فعله اقتباسا عند هؤلاء فهو المنشيء و الخطيب ، فمن ذلك قول الحريري : فطوبى لمن سمع و وعى ، و حقق ما ادّعى و نهى النفس عن الهوى ، و علم أن الفائز من ارعوى و أن ليس للإنسان إلا ما سعى و أن سعيه سوف يرى»10

لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن القرآن الكريم مثل منبعاً ثرياً لقرائح الشعراء في مختلف العصور ، فتأثروا به مباشرة ، واستفادوا من الأحكام ، والتشريعات الإسلامية المستنبطة منه ، غير أنّ التأثر بالقرآن الكريم ، والأحكام الإسلامية عامة يتباين بتباين العصور ، ويختلف في العصر الواحد بين شاعر وشاعر ، كما يتباين بتباين موضوعات الشعر ، وأغراضه المختلفة وهو"لا يحيل إلى تدين الشعراء إنما يحيل إلى مصدر أساسي من مصادر ثقافتهم" (11)

---

(7) سورة : القمر ، الآية 20.

(8) هو حيب بن أوس بن الحارث الطائي (188 هـ - 231 هـ) ، أبو تمام ، الشاعر ، الأديب : كان واحد عصره في ديباجة لفظه، ونصاعة شعره ، وحسن أسلوبه . ولد في جاسم من قرى حوران بسورية ... له تصانيف منها " ديوان الحماسة" و " فحول الشعراء" و " الاختيارات من شعر الشعراء" وغير ذلك. ينظر : ابن قنفذ القسنطيني : كتاب الوفيات ، تحقيق: عادل نويهض . منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط4 / 1983م ، ص 168.

(1) ديوان أبي تمام ، تقديم وشرح: د. محي الدين صبحي ، ج1 ، دار صادر – بيروت – لبنان ، ط1 /1997م ، ص 343.

(2) سورة : التوبة ، الآية : 40

- بدوي طبانة ، السرقات الأدبية ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان 1986 ، ص 164 . 9

- بدوي طبانة ، السرقات الأدبية ، ص 165 . 10

(11)ينظر: محمد، إبراهيم حمدان : أدب النكبة في التراث العربي ، ص 241.

وهكذا، يمثل الخطاب الديني مرجعية ثقافية واجتماعية وفكرية للشاعر؛ فمن أرضيته ينطلق الشاعر للتعبير عن رؤيته للعالم، باعتباره – أي الخطاب الديني – محور العلوم والمعارف، ومعيناً لا ينضب يقصده الشاعر لينهل من نميره العذب، ويستدع ماحوت منابعه من قصص وإشارات، ورموز، لتذوب في نص الشاعر، فتكسبه العلو والرفعة، وتمنحه الثقة والطمأنينة المطلوبة، وتؤكد التصاقه بميراثه الديني، وتدعوه إلى الفخر لاستشهاده بنصوصه.

أولا: القصص القرآني : مزج القرآن بالتاريخ (تاريخ الأمم السابقة):

يمزج الشاعر العباسي في هذا الجانب في نسيج نصِّه بين الموروث التاريخي القديم وما ورد في القصص القرآني من تصوير لتاريخ الأمم وحوادث التاريخ ليعيد بناء الصورة الشعرية للممدوح لديه وتشكيل الدلالة الكلية للنص، كما هو الحال في وصفه لبركة الخليفة العباسي المتوكل وجمال تصميمها [12]، فيقول فيها[13].

كأنَّ جِنَّ"سُلَيْمانَ" الذين وَلُوا إِبْدَاعَها فَأَدَقُّـوا في مَعَانيهَا

فَلَوْ تَمُرُّ بها "بِلْقَيسُ" عن عُرُضٍ قالتْ: هِيَ الصَّـرْحُ تمثيلاً وتَشبِيهَا

تَنْحَطُّ فيها وُفُودُ الماءِ مُعْجَلَةً كالخيلِ خَارِجَةً من حَبْلِ مُجْرِيهَا

ويتردد توظيف البحتري للقصص القرآني ممزوجًا بملتبساته التاريخية كما رأينا في حديثه عن سحر هاروت، وما جاء من حديث عن نبي الله سليمان في وقصته مع بلقيس ملكة سبأ، وما جاء في مديحه للمتوكل واصفًا ملكه بملك سليمان عليه السلام، وما ذكره من قصة ذي نواس وأصحاب الأخدود، وما ورد في مديحه لأبي سعيد محمد بن يوسف من حديث عن ذي القرنين وجنوده، حيث يقول يمدحه ويمدح جنوده(14):

سَلامٌ على الفِتْيَانِ بالشَّـرْقِ إِنَّنِي إلي الجَانِبِ الغَرْبِيّ يَمَّمْـتُ وَاغِلا

مع اللَّيْثِ وابن اللَّيْثِ أَضْحَى مُغَاوِرًا حُمَاةَ الضَّوَاحِي ثُمَّ أمسي مُـقَاتِلا

نَزُورُ بِلا شَـوْقٍ "تَذْوَرَةَ" وَابْنَها وقد صَدَّ عنها "تَوْفَلُ بنُ مَـخَايِلا

كَأَصْحَابِ ذِي القَرْنَيْنِ حيثُ تَبوَّأوا وراءَ مَغِيْبِ الشَّمْسِ " تِلْكَ المَنَازِلا

---

(12)رمضان أحمد عبد النبي عامر: جماليات التناص وتشكيل صورة الممدوح في الشعر العباسي جامعة قطر- كلية الآداب والعلوم- قسم اللغة العربية،ص25: ضمن المؤتمر الدولي الموسوم بـ "جماليات التناص في الأدب العربي" المنعقد بتاريخ:2-4 جمادى الآخرة1433ه/24-26 أفريل2012 ، المنعقد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة آل البيت – الأردن.

(13) البحتري: الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط 3، (د.ت). ج 4 ص 2417، وانظر الديوان ج2 ص 730 في القصيدة التي مدح بها المعتز بالله، وتعقيب المحقق في الحاشيتين 15 و 16 ج 4 ص 2417.

(14) الديوان ج 3 ص 1604- 1605.

ومَنْ يَتَقَلْقَلْ في سَرَايا ابنِ يُوسُفٍ يَرَ الحَقَّ في قُرْبِ الأَحِبَّةِ بَاطِلا

والشاعر يريد من وراء ذلك رسم صورة مظللة بهالة من التقدير والتكريم للممدوح، فتتناص صورة ذي القرنين وجنوده وقضائه على يأجوج ومأجوج مع صورة محمد بن يوسف فتدلل على قوته.

ونراه كذلك يذكر الآية التي وردت فيها قصة السامري مع بني إسرائيل والعقاب الذي عوقب به؛ حيث حُرِّم عليه أن تكون له صلة بمجتمعه، أي فرضت عليه العزلة عقابًا له، وإسقاطها على حاله الراهنة في مديحه لمحمد بن عبد الله بن طاهر يستعطفه ويتقرب إليه(15):

وَلَقَدْ رَجَعْتُ إليكَ بَعْدَ مَلاوَةٍ فَقَبَلْتُ رَجْعَةَ وَامِقٍ مُسْتَاسِ

فَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لي، وصُنِّي إنَّني كالسَّامِرِي محَرَّمٌ بِمَسَاسِ

أو لأُتْرِكْتُ لَقًا لكُلِّ خَسَاسَةٍ كقَبِيصَةَ الطَّائِي أو كإِيَاسِ

يَهْنِيْكَ جَلْوَتُها فَخُذْهَا عاتِقاً فَوْقَ المِنَصَّةِ شَمْسَةَ الأَعْرَاسِ

والشاعر يجسد من خلال توظيفه للآية القرآنية الخاصة بقصة السامري مع نبي الله موسى(16) المأساة التي يعيشها بعيدًا عن الممدوح معزولاً، وكأن الممدوح صار المجتمع كله، من اعتزله صار معزولاً عن المجتمع بأكمله.

وابن الرومي يستدعي قصة طوفان نوح ليجسد من خلالها خلال الكرم والسخاء لدى ممدوحه القاسم بن عبيدالله(17)، ويستدعي محنة نبي الله أيوب عليه السلام ليصور من خلال ظلالها التاريخية والدلالية محنته مع ممدوحه القاسم بن عبيد الله(18)، وحين يهجو أبا يوسف الدقاق يستدعي قصص قوم صالح وهود وعاد وثمود، ويستدعي حادثة مسخ اليهود قردة(19)، وأبو العتاهية يستدعي قصة نبي الله موسى عليه السلام وعصاه ليجسد من خلالها صورة الملك وصولجانه، وليضفي شيئًا من ملامح التقديس على شخصية الخليفة العباسي موسى الهادي(20).

ثانيا: شعرية الاقتباس في مرثية ابن الرومي للبصرة

---

(15) الديوان ج 2 ص 1174، وانظر التعليقة رقم 80 بحاشية الديوان.

(16) انظر سورة طه/ الآية 97.

(17) - ابن الرومي: الديوان، شرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 3، 2002م. ج 1 ص 89.

(18) ابن الرومي: الديوان ج 1 ص 222.

(19) ابن الرومي: الديوان ج 1 ص 471.

(20) أبو العتاهية: الديوان ص 211. وانظر ديوان ابن الرومي ج 1 ص 85.

قال الأصمعي ، قلت لأعرابي:

ما بال المراثي أشرف أشعاركم ؟ قال: لأنّا نقولها وقلوبنا محترقة

مقام النص المقروء

يستمد العمل الأدبي ثراءه بالتحديد من خاصية التواصل المؤخّر التي تميز النص المكتوب. وبما أن تلقي العمل الأدبي يحدث خارج إطاره الأصلي فإنه ينفتح على أكثر من تأويل ويقبل أكثر من تفسير. ذلك أن كل قارئ جديد يحمل معه تجربته الخاصة وثقافته الفردية وقيم عصره وهمومه وينظر إلى النص من خلالها ، وهكذا رأى الباحث عبده ، بدوي في قصيدة ابن الرومي إرهاصاً إلى بداية أحداث قادمة وقد حصلت ... وكأن سياق هذه القصيدة يحيلنا إلى ما يحدث حاليا في الوطن العربي يقول:عبده بدوي- بعد أن قدم قراءة فنية لـ ميمية ابن الرومي- :" وفي الوقت نفسه كانت قصيدة متنبئة بأن الأمر لن يقف عند هذا الحد، وأن هناك أحداثا قادمة...ولقد جاءت الأحداث"

عبده ، بدوي : دراسات في النص الشعري العباسي، ص189.

التناص القرآني هو اقتباس عند القدماء "وهو أنْ يُضمّن المتكلم كلامه كلمة من آية ، أو آية من كتاب الله تعالى....."(21) ؛ و قد شكل القرآن الكريم منبعاً ثرياً لقرائح الشعراء في مختلف العصور ، فتأثروا به مباشرة ، واستفادوا من الأحكام ، والتشريعات الإسلامية المستنبطة منه ، غير أنّ التأثر بالقرآن الكريم ، والأحكام الإسلامية عامة يتباين بتباين العصور ، ويختلف في العصر الواحد بين شاعر وشاعر ، كما يتباين بتباين موضوعات الشعر ، وأغراضه المختلفة وهو"لا يحيل إلى تدين الشعراء إنما يحيل إلى مصدر أساسي من مصادر ثقافتهم ، وغرض قصيدتنا- رثاء المدن- من أكثر الأغراض الشعرية اتكاء على القرآن الكريم ، وما تضمنه من أحكام ، ومواعظ ، وتشريعات ، لا يضاهيه في ذلك سوى الشعر الديني الخالص ، وشعر الزهد أحياناً " (22) .

إنّ وجوه الاستفادة من القرآن الكريم ، وأحكام الشرع الإسلامي في القصيدة متعددة ، وكثيرة بحيث لا تكاد تخلو وحدة من وحدات النص من نماذج عدة من تلك الاستفادة مباشرة- أي اقتباساً من القرآن الكريم- ، أو بشكل غير مباشر - أي عن طريق المفاهيم الإسلامية ، والأحكام ، والتشريعات- ، يقول العقاد متحدثا عن معجم ابن الرومي:" أما لفظه من حيث هو صحيح ، وخطأ فلفظ عالم بالنحو ، مطلع على شواهد العربية ، ولا

---

(21) بدوي طبانة:السرقات الأدبية ، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها ، ط2 ، مكتبة الأنجلو المصرية ،1969 ، ص163.

(22)ينظر: محمد ، إبراهيم حمدان:أدب النكبة في التراث العربي، أدب نكبات المدن ذات الأسباب الداخلية ، في المشرق العربي في العصر العباسي ، د/ط ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2004.، ص 241.

سيما القرآن..."(23) ، ومن أهم صور الاقتباس في هذه القصيدة نذكر قوله:

17- أيَّ هولٍ رأوا بهم أيَّ هول حُق منه تشيب رأسُ الغلام

يحاول ابن الرومي في هذا البيت أنْ يرسم صورة الفزع ؛ وأيّ فزع عظيم ، هذا الذي دبّ في روع أهلها ، فابيضت لشدته رؤوس الغلمان ، وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً (24)، ويقول أيضا مبينا هول الفتنة ؛ حيث امتشق الزنوج سيوفهم علانية مما أرعب النساء ، فأسقطت الحوامل منهن قبل أن يحين موعد الإنجاب:

15- طلعوا بالمهندات جِهرًا فألقت حملها الحاملات قبل التمَّام

ويحيل هذا البيت إلى قوله تعالى: يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (25).وفي بيت آخر لابن الرومي يقول فيه :

27- صبّحوهُمْ فكابدَ القومُ منهم طول يومٍ كأنَّه ألفُ عام

تتجلى في هذا البيت ترجمة الوضع النفسي في الصورة التي رسمها ابن الرومي للحظات القلق والاضطراب والخوف التي عاشها البصريون في يوم محنتهم على يد الزنج ، والتي يلتفت فيها إلى قوله تعالى وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (26).

وتتبلور الدلالة التناصّية على أشدَّها في الأربع وحدات الأخيرة من القصيدة ، نتيجة لاعتماد الشاعر على المفردات والتراكيب من ناحية ، واستدعائه لسلسلة من الآيات القرآنية ، ذات الأبعاد الإنسانية المتعدّدة من ناحية ثانية. وهنا تكثر الدفقة الشعرية بمجموعة تناصّات ؛ يتمّ فيها حضور الخطاب القرآني حضوراً جماعياً ، لشحن العبارة بكمّ هائل من القداسة والإيحاء ، يقول في وصف مظاهر الحضارة بالبصرة:

42- أين فلكٌ فيها وفلك إليْها منشئآتٌ في البحْر كالأعلام؟

---

(23)العقاد ، عباس محمود : ابن الرومي ، حياته من شعره ، د/ط ، دار الهلال ، 1969.

، ص281.

(24) سورة : المزمل، الآية:17.

(25) سورة : الحج ، الآية:2.

(26) سورة : الحج، الآية:47.

وفي القرآن الكريم: وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ [27] ، و هكذا نلاحظ أنّ الشاعر قد استقى قافيته ، بإيقاعها ودلالتها من سورة الرحمن من خلال دالة "الأعلام". ويقول – أيضا– مستفهما عن التبرير ، الذي يقدمه ، وأهله حين يناديهم الله يوم الحساب على مرأى ، ومشهد من الناس :

60– أيُّ عـذرٍ لنا وأيُّ جواب حين نُدعى على رؤوس الأنام

وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً [28].

وفي المحاكمة التي يتصورها ابن الرومي عندما يحاسب الله عباده ، وعندما يسأل النبي (صلى الله عليه وسلم) أبناء ملته عما فعلوه لمنكوبي البصرة إحالة إلى المعاني الإسلامية واضحة الدلالة ، والأبعاد ، إنّهم مسؤولون (لأن الأديان كالأرحام):

59–واحيائي منهم إذا ماألتقينا وهمُ عند حاكم الحُكّام

60–أيُّ عـذرٍ لنا وأيُّ جواب حين نُدعى على رؤوس الأنام

61–ياعبادي: أما غضبتم لوجهْي ذي الجـلال والإكـرام؟

62–أخذلتم إخوانكم وقَعدتـم عنهمُ–ويحكم– قعودَ اللَّئام؟

وفكرة هذه المحاكمة سُبق إليها ابن الرومي ، تقول ابنة عقيل ابن أبي طالب بعد مقتل الحسين:

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأممِ

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وقتلى ضُرّجوا بدمِ(29)

وتأسيسا على ما تقدم نلحظ أنّ الاستدعاء التناصي القرآني(الاقتباس) في هذه القصيدة دار أغلبه في حيز التجلي لا الخفاء ، بمعنى أن تناص ابن الرومي كان مع الآيات سبيلا إلى المضمون ، فتمثُّل الشاعر النص القرآني دالاً سيميولوجياً، وأسلوبياً مقنعاً لِمَا أراد أن يطرحه في تحولات خطابه الشعري من ديني / تاريخي ، إلى سياسي / اجتماعي/ أخلاقي ، يقول الباحث عبده بدوي :"على أنه مما يلاحظ أنّه في هذا الجانب يستخدم صورا دينية كثيفة" (30) ، ومن هنا تتبدى لنا أولى مظاهر وعي ابن الرومي بما يمكن أن أسميه "التجريب الإيقاعيَّ"، وفق

---

(27) سورة : الرحمن، الآية:24.

(28) سورة : المرسلات، الآية:35،36.

(29)ابن الأثير، ضياء الدين: الكامل في التاريخ، دار الفكر ببيروت، 1978،ج3، ص 301.

(30)عبده ، بدوي : دراسات في النص الشعري العباسي ، د/ط ، دار قباء للنشر والتوزيع"عبده غريب" ، القاهرة ، 2000.، ص190.

التناص القرآني الفاعل ؛ اتِّساقاً مع بواعث نفسيَّة وإبداعيَّة ؛ وفق تحوُّلاتٍ من خطاب ديني يتداخل بتداعيات متباينة في حوار يسقطه الشاعر على خطاب سياسي ، واجتماعي ، تلعب فيه اللغة أصواتاً ، وإيقاعاً دور البطولة، في منظومة التناص ؛ التي تحمله هذه الخطابات المتباينة.

ونحس ونحن نقرأ هذه القصيدة أنّ ابن الرومي كان يدرك أهمية هذه الآلة البلاغية في الإخبار ، والتبليغ ، والإقناع ، والتأثير ، لذلك جاء شعره يعبق لذة ، لتوفيقه في استخدام الآيات القرآنية ، وحسن استعمالها في مواضعها. ويتلقف شاعرنا ما يضمه الخطاب الديني لغةً ، وإيقاعاً مسجوعاً جاء تعبيراً عن مضامين ، ومشاهد أُخروية ، ليسقطها- عبر خطابه البكائي الاستصراخي – على واقع أمته المنكوبة بأبنائها ، مشكَّلاً خطابَيْةً وفق التركيب الصوتي للقرآن الكريم ؛ يقول:

75- أنْفروا أيها الكرامُ خفافًا وثقالاً إلى الْعبيد الطَّغام

يقول عبده بدوي معلقا على هذا البيت:"فهو قادم من المناخ الديني الذي مرّ بنا- المتعلق بالوحدة السابقة- وهو الذي حرك به المشاعر ، ولهذا كان من الطبيعي أن ينظر إلى قول الله تعالى: انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، والأبيات كما يلاحظ تستثير الحماس الديني لدى المسلمين"(31). و من صور التشاجر القرآني في القصيدة ؛ قوله حاضا على جهاد صاحب الزنج، وأنصاره يقول:

79- لم تقرُّوا العيونَ منهم بنصْرٍ فأقرُّوا عيونهم بانتقام

إنه يرتكز على قوله تعالى فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً [32] .

ويرمي ابن الرومي في آخر بيت من القصيدة إلى أن يكون الكفاح بداية ، وفاتحة الطريق ، وأن تكون الثورة هي الخيار الأمثل الذي يمثل طريق العودة ؛ لذا نجده يستأنس باستخدام الأسلوب القرآني في بناء القفل/البيت الأخير من القصيدة مع التغيير في مفرداته بما يتوافق ومدلول نصه ، يقول:

86- فاشْتروا الباقياتِ بالْعَرض الأدْ نى وبيعوا انقطاعَه بالدَّوام

ويحيلنا هذا البيت إلى عديد الآيات القرآنية المتضمنة معنى الجهاد الديني ، والإقبال علي الآخرة ، منها قوله تعالى يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ [33] ، كما تتجلّى في القصيدة فاعلية الامتصاص

---

(31) عبده، بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي، ص192.

(32) سورة : مريم، الآية:26.

(33) سورة : غافر، الآية:39.

الشعريّ لبعض التراكيب ، والمفردات القرآنية ، وظّفها ابن الرومي بصياغة جديدة ، ممَّا أكسبها نوعاً من الخصوصية والتميّز ، وكأنّ التناص ـ هنا ـ لم يعتمد التضمين المباشر فقط أي "التضمين اللفظّي" ، أو الوظيفيّ"، وإنما اعتمد أيضا على نوع من التمثّل الرمزيّ ، أو الخفيّ لبعض التراكيب ، والمفردات القرآنية ، بشكل يثير في نفس المتلقّي قدرة إيحائية خاصة ، تمكّنه أن يستجلي النصّ الشعريّ ، ومدى تأثره بالنصّ القرآني ، ومدى استقطابه لبعض اللمحات ، والومضات القرآنية ، التي توسّع فضاء قصيدته ، وتغني تجربته كلّها ، "والذي يجب الإشارة إليه أن التناصّ بالمفردات ، لا يمكن الاعتماد عليه في رصد المحاور وتداخلاتها في النصّ أحياناً ، إلا إذا كانت هذه المفردات تستحضر صوراً(34) " ، ومن التراكيب ، والمفردات التي استدعت صورا تناصية قوله:

21– كمْ أخٍ قد رأى أخاهُ صريعًا تَرِبَ الْخدِّ بين صرْعى كرام؟

وهذا يحيلنا إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة الحاقة : سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ [35]، وفي تناص آخر على مستوى التراكيب يقول: **07– وتسمَّى بغير حق إمامًا لا هدى الله سَعْيه من إمام**

فالتركيب الأول" بغير حق " تكرر في القرآن الكريم في مواضع خمسة ؛ ثلاثة منها في سورة آل عمران (الآيات:21-121-181) ، ومرة في سورة الحج(الآية40) ، وأخرى في سورة النساء (الآية 155).أما التركيب الثاني "هدى الله" والذي تكرر في القران الكريم في عديد الآيات منها قوله تعالى: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ [36] ، ونجد هذا التركيب أيضا في الآية 143 من سورة البقرة، والآية 36 من سورة النحل ؛ غير أنّ المفارقة تتفجّر في التركيب الثاني"هدى الله" من خلال المخالفة التصويرية بين النصّين "القرآنيّ والشعريّ". فالشاعر استدعى التركيب القرآني بمضمونه الفكري ، ووظفه في إطار بنائيّ أو إيقاعيّ مخالف تماماً للنصّ القرآنيّ ، من ناحية المضمون: السلب والإيجاب ، إذ وظفه بأسلوب النفي" لا هدى الله....". ومن المفردات والتراكيب المندرجة في هذا الإطار قوله مكررا دالة "سلام"، في إطار دعائه على عظام القتلى الطاهرة ، بأن يمن الله عليها سلاما منقطع النظير:

---

(34)عصام ، شرتح : ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2005.، ص218.

(35) سورة : الحاقة، الآية:7.

(36) سورة : الأنعام، الآية:90.

74– وعليها من المليك صلاةٌ وسلامٌ مؤكَّدٌ بسلام

وفي القرآن الكريم سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [37]. ومن صور التناص على مستوى المفردات والتراكيب قوله:

76– أبْرَمُوا أمرهُم وأنتم نيامٌ سوءةٌ سوءةٌ لنوم النيام

ويحيلنا هذا إلى قوله تعالى في سورة الزخرف أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ [38]

خاتمة:

من هذا المنطلق شكلت الصيغ/التراكيب القرآنية في نصّ ابن الرومي بؤرة دلالية ، استقطبت الإيقاع ، والبناء في آن ، لهذا كان تمثّل القرآن في هذا النصّ جلياً أمام القارئ . يستخلص مما مرّ أن نص ابن الرومي قد تأثر بالجو الإسلامي، ومناخه ، وروحه في المعنى ، واللفظ وطريقة التناول معاً ، فتجلت – بذلك– البنية القرآنية في القصيدة، أو لنقل إنّ النص امتصها على أنحاءٍ مختلفة.

وهكذا، نلحظ أنّ ابن الرومي نجح في استدعاء الخطاب القرآنيّ ، بما يتلاءم وسياق النص ، فساهمت بذلك التراكيب القرآنية في تشكيل رؤية جديدة للقصيدة ، وفتحت لها آفاقاً ممتدّة ، حتّى غدت أشبه بلوحة فّنية ، فيها من التكامل والتمازج والتقاطع ما يجعلها تحفة شعرية رائعة....وهذا يدّل على رهافة إحساس ابن الرومي ، إذ جعل النصّ القرآنيّ مرجعاً رئيسا ، استمد من قيمه وروحانيته الشيء الكثير ، ....غيرَ أنّه أضفى عليه لوناً جديداً من مشاعره وأحاسيسه ووجدانه بما يتناسب وطبيعة الرؤية المأسوية الاستصراخية التي يمثّلها...، من ذلك تنوّيعه أساليب الاستحضار ، بحيث لم يقتصر استحضاره على الآية ، وإنما تعدّى ذلك كلّه إلى استحضار الإشارة القرآنية ، و الإيماءة ، و اللّفظة ، و التركيب ، وهي جوانب ثريّة منحت القصيدة نفسا ملحميّا ، دراميا .... وعلى الجملة بينّ مبحث التناص أنّ لغة ابن الرومي الشعرية كانت حيّة نابضة بثقافة واسعة ، ومتمثِّلة لكُلّ الأَطْوَار الشعرية ، ممّا جعلها تغدو حيّة في نفس المتلقِّي ، فجاءت القصيدة بذلك مشحونة بفيض هائل من الدلالات التراثية

(37) سورة : الرعد، الآية:24.

(38) سورة : الزخرف، الآية:79.